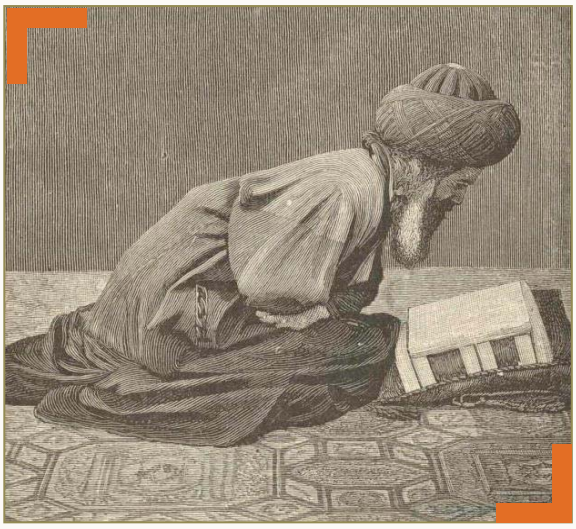

من تاريخ المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية "المكتبات الخاصة"

يسري عبد الغني عبد الله

باحث ومحاضر في الدراسات العربية الإسلامية
خبير في التراث الثقافي
القاهرة – جمهورية مصر العربية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

يسري عبد الغني عبد الله، من تاريخ المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية: المكتبات الخاصة.- دورية كان التاريخية.- العدد السادس عشر؛ يونيو ٢٠١٢. ص ٥٢ – ٥٨.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

ملخص

تعد المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية من أهم المؤسسات الثقافية التي عني بها المسلمون، وكان لها دور كبير في الحياة الثقافية والعلمية، ولقد انتشرت هذه المكتبات في جميع أرجاء الدولة الإسلامية، فوُجدت في قصور الخلفاء، وفي المدارس، والكتاتيب، والجوامع، ويعرض هذا المقال إضاءات ورؤى على مكتبات خاصة جدًا هي: مكتبة الفتح بن خاقان، مكتبة حنين بن إسحاق، مكتبة ابن الخشاب البغدادي، مكتبة الموفق بن المطران، مكتبة القفطي، مكتبة ابن فاتك، مكتبة إفرائيم الزفان، مكتبة العماد الأصفهاني.

مُقدّمة

"المكتبات الخاصة" هذه النوعية من المكتبات أنشأها العلماء والأدباء وأهل الفكر لاستعمالهم الخاص، وهذا النوع من المكتبات كان كثيرًا جدًا، بل يمكن القول أنه كان واسع الانتشار في أرجاء المعمورة الإسلامية. وفي الواقع أنه كان من العسير أن نجد عالمًا أو أديبًا أو مفكرًا أو رجلاً يشتغل بالتأليف والإبداع والتحقيق دون أن يكون له مكتبة خاصة به، يرجع إليها في دراساته واطلاعاته وكتاباته، وبالطبع كانت هذه المكتبات عزيزة على قلب صاحبها، يضحي بالغالي والنفيس من أجلها.

وفي هذه السطور سنقوم باختيار عدد قليل من هذه النوعية من المكتبات، التي نتحدث عنها من منطلق كونها مكتبات الخاصة كان لها دورًا تعليميًا واضحًا، ثم آلت إلى أن تكون مكتبات عامة مفتوحة الأبواب للباحثين والدارسين والقراء دون قيد أو شرط. وفي رأينا المتواضع أن المكتبة التي تفيد الناس وتفتح أبوابها لهم في كل وقت، دون شروط أو قيود، هي المكتبة الجديرة بالكلام والحديث، فعندما تحبس الكتب عن الناس، وفي مقدور صاحبها أن يفيدهم بها فذلك فعل مشين لا يليق بمحب الكتب، العارف بدورها في التحضر والثقافة.

مكتبة الفتح بن خاقان

الفتح بن خاقان هو وزير المتوكل على الله الخليفة العباسي، وقد قتل معه في مدينة سامراء (سُر من رأى) سنة ٢٤٧ هـ، وكان الفتح رجلاً محبًا للعلم والعلماء، واسع الاطلاع، عالمًا، مولعًا بالقراءة والبحث، حتى قيل: "إنه كان يحضر لمجالسة المتوكل العباسي، فإذا أراد أن يقوم للوضوء أخرج كتابًا فلا يزال يطالعه في ممره وعوده للمتوضأ، فإذا وصل إلى الحضرة الخليفية (مجلس الخليفة) أعاده حيث كان.[1]

ومن الطبيعي جدًا أن يكون لهذا الرجل المثقف مكتبة ضخمة ثرية، فهو رجل حباه الله بالمال الوفير، والرغبة الحميمة في الاطلاع والمعرفة، وقد عهد الفتح بمهمة تكوين هذه المكتبة إلى رجل من خيرة رجال العصر علمًا وفكرًا وأدبًا، ألا وهو علي بن يحيي بن أبي المنصور المنجم (الفلكي). وكما يقول ابن النديم في كتابه (الفهرست) فإن المنجم اتصل بالفتح بن خاقان، وعمل له خزانة

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

حكمة (أي مكتبة)، نقل إليها من مكتبته، ومما استكتبه الفتح، أكثر مما اشتملت عليه خزانة حكمة قط.[٢]

أما الكتب التي استكتبها الوزير الفتح بن خاقان فقد كانت من الكثرة بمكان، كتبها اعاظم رجال الفكر والدب في ذلك الوقت، وفي مقدمتهم شيخنا الموسوعي الجاحظ، فيقال: إنه ألف للفتح كتاب: (التاج في أخلاق الملوك) المنسوب للجاحظ، وكتاب: (مناقب الأتراك وعامة جند الخلافة)، كما ألف له محمد بن الحارث التغليبي، ومحمد بن حبيب كتبًا قيمة أخرى، ضاعت أصولها فلم تصل إلى أيدينا. وقد حق لابن النديم، أن يصف هذه الخزانة بأنها لم يُر أعظم منها كثرة وحسنًا.[٣]

مكتبة حنين بن إسحاق

يحدثنا ابن أبي أصيبعة في كتابه الشهير (عيون الأنباء) عن حنين بن إسحاق، فنعرف أنه كان من أبرز الأطباء والمترجمين في عهد الخليفة المأمون العباسي (الفتى الذهبي للحضارة الإسلامية)، وكان أعلم أهل زمانه باللغة اليونانية والسريانية والفارسية، إلى حد كبير لم يصل إليه أحد من النقلة الذين كانوا على أيامه، مع براعة فائقة لا توصف في اللغة العربية، ومداومة لا تنقطع في الاشتغال بالعلم والترجمة، حتى صار من جملة المتميزين فيها، وظل يشتغل بالعلم والعلوم حتى وفاته سنة ٢٦٤ هـ.[٤]

ويصفه القفطي صاحب (أخبار الحكماء) بأنه كان فصيحًا، لسننًا، بارعًا، شاعرًا، وكان شيخه في اللغة العربية الخليل بن أحمد الفراهيدي، صاحب معجم (العين)، وواضع علم العروض (موسيقا الشعر)، وقد نقل حنين بن إسحاق كتبًا عديدة إلى اللغة العربية، وكل جل اهتمامه كان ينصب على كتب الحكمة والطب.[٥] ولعل ذلك ما جعل مكتبة العالم المترجم حنين بن إسحاق الخاصة الضخمة، تتميز بثروة وفيرة جدًا من كتب الطب بجمع ألوانه وأنواعه وأشكاله، وبعدد غزير من المؤلفات المكتوبة باللغات الأربع التي كان يجيدها قراءة وكتبة ونقصد بها: اليونانية، والسريانية، والفارسية والعربية.

وكان حنين بن إسحاق من هواة الكتب، يجمعها، ويقرأ فيها بعمق وتمعن وتمحيص، ويقال أنه سافر إلى أقصى بلاد الروم لطلب الكتب. وقد عد ابن النديم في(الفهرست) جملة كبيرة جدًا من الكتب، ذكر أنها مؤلفات حنين بن إسحاق.[٦] وهذه الكتب التي عدها ابن النديم لحنين بن إسحاق يمكن أن تشكل وحدها مكتبة ضخمة عظيمة الشأن، فما بالنا إذا أضيفت لها المراجع والمصادر التي اعتمد عليها حنين بن إسحاق في تأليف كتبه!!

مكتبة ابن الخشاب البغدادي

يحدثنا ياقوت الحموي في كتابه (معجم الأدباء) عن ابن الخشاب المتوفى سنة ٥٦٧ هـ، فنعرف أنه عبد الله بن أحمد الخشاب البغدادي، كان أدرى الناس بكلام العرب، وأعرفهم بعلوم شتى من النحو واللغة والتفسير والنسب، كما أن له مؤلفات غزيرة، وكتب مفيدة بها فكر جيد.[٧] وكان ابن الخشاب إذا كتب كتابًا يشترى بالمئين، ويتنافس عليه المتنافسون من أهل العلم، ولعل ذلك أكبر دليل على مدى شهرته، وثقة الناس في علمه.

كان ابن الخشاب ثقة في رواية الحديث النبوي الشريف، صدوقًا نبيلاً في حجته وكلامه، إلا أنه . والعدة على ياقوت الحموي لم يكن في أخلاقه كذلك، والسبب أنه جمع كتبًا كثيرة جدًا، ولكنه لم يتحرى الطريق القويم السوي في جمعها، فقد امتلك حب الكتب عليه نفسه (أقطار نفسه)، وشغف بها وبجمعها شغفًا كبيرًا لا حدود له. ثم كان في الوقت نفسه بخيلاً لا يحب أن يدفع الكثير من المال ثمنًا لها، وعلى هذا تنكب سواء السبيل، فكان يحتال لجمعها، فإذا استعار من أحد كتابًا وطالبه به، قال: دخل بيت الكتب فلا أقدر عليه (أي لا أقدر على العثور عليه).. !! وإذا حضر سوق الكتب شراء كتاب غافل الناس، وقطع منه ورقة، وقال بصوت مسموع: إنه مقطوع، لينصرف المشترون عنه، فيأخذه بثمن بخس!! إلا أنه في خاتمة حياته أوقف كتبه على أهل العلم، فجزاه الله خيرًا، وغفر له ولنا.

محاولة للتوضيح:

إن كلام ياقوت الحموي عن ابن الخشاب البغدادي يمكن لنا أن نحلله فنخرج بعدة أمور نراها على درجة كبيرة من الأهمية:

الأمر الأول: يعتبر ياقوت ابن الخشاب البغدادي رجل حاد عن جادة الصواب أو عن الطريق السوي، لأنه جمع العديد من الكتب التي شغف بها أو تملكت أقطار نفسه، وجمع الكتب وحبها، والحرص على امتلاكها وعدم التفريط فيها تحت أي ظرف من الظروف، أمر حضاري رائع، ولكن بشرط أن نلتزم في ذلك بالأخلاق والقيم التي تملها علينا مبادئ العلم وأخلاقياته. فلا يصح بأي حال من الأحوال ألا ندفع ثمن الكتب التي اشتريناها أو حصلنا عليها، ولا نبخس الناس أشياءهم، ولا يصح أن نعطيهم أقل من حقهم المقرر أو المتفق عليه، كما لا يصح أن نحتال عليهم من أجل الوصول إلى أخذ ما نريد، فكل هذا لا يليق بأهل العلم ومحبيه. ومن الجدير بمحبي الكتب والقراءة والعلم أن يكونوا في طليعة العارفين بآداب البيع والشراء، وأن يكونوا أكثر الناس تحليًا بالأدب الرفيع والسلوك القويم.

الأمر الثاني: نعرف من كلام ياقوت أن ابن الخشاب كان لا يعرف آداب الاستعارة وأخلاقها، فكان إذا استعار من أحد كتابًا وطلبه منه، قال: إن الكتاب دخل بيت الكتب فلا أقدر عليه !! ، وهذا لا يصح من رجل أحب العلم، وحرص على الكتب، وغني عن البيان أن أدبيات استعارة الكتب من الأمور المهمة التي أعطتها الحضارة العربية الإسلامية كل الاهتمام، وتكلم فيها العديد من العلماء والمفكرين، وقد كتبنا عدة مقالات في هذا الموضوع، نشرنا بعضها في مجلة (أحوال المعرفة) التي تصدر عن مكتبة الملك عبد العزيز العامة، وفي غيرها من المجلات التي تهتم بالمكتبات والمعلومات. ولعل موقف ابن الخشاب يذكرنا بهؤلاء الذين يتظرفون أو يستظرفون فيقولون: إن السرقة حرام إلا في الكتب

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

فهي حلال !! ونقول لهم: إن السرقة هي السرقة، ومن الأولى بنا أن نكون أمناء في تعاملاتنا مع العلم والكتب، وهذا ما تعلمناه من الحضارة العربية الإسلامية على مدى تاريخها الطويل.

الأمر الثالث: يدخل البعض إلى المكتبات العامة، ويكون في حاجة إلى باب أو فصل من كتاب، أو لوحة، أوشكل توضيحي، فيغافل المشرفين على المكتبة، ويقوم بنزع ما يريد، ويفاجأ المشرفون على المكتبة أثناء مراجعتهم لهذه الكتب أو إذا إطلع عليها قارئ آخر، بهذا السلوك المشين، والكتاب مثل الكائن الحي، فكيف تسول لنا أنفسنا ببتر جزء من هذا الكائن ؟!

ومهما كانت المبررات التي يسوقها هؤلاء كتوفير الوقت أو الجهد، أو أن الكتاب في المكتبة ملك عام، فإن هذه تراهات فارغة يجب أن يتنزه عنها كل محب أو متعامل مع الكتب.

أقول هذا ونحن نستمع إلى ياقوت الحموي الذي يحدثنا عن ابن الخشاب البغدادي الذي كان يحضر أسواق بيع وشراء الكتب، وسرعان ما يغافل الناس في السوق ويقطع من الكتاب الذي يريده ورقة، ويقول بصوت يسمعه الناس: إنه مقطوع! وبالتالي ينصرف عنه الناس، فيأخذه ابن الخشاب بثمن بخس. وبالطبع نلح هنا على أن هذا لا يليق ولا يصح من أهل العلم، ولا يصح من باب أولى من رجل كان من علماء اللغة العربية، والحديث النبوي المطهر. ويبدو أن (ياقوت) تعرض لموقف معين مع ابن الخشاب، فيقوت كان يعمل معظم حياته بالنسخ وبيع وشراء الكتب، أي أنه كان (كتبيًا) محنكًا، أضف إلى ذلك كونه مؤلفًا موسوعيًا بارعًا، ولا يعرف الأمور التي كان يفعلها ابن الخشاب إلا (كتبي) ضليع مثل شيخنا ياقوت الحموي.

الذي يهمنا هنا رغم عدم إقرارنا أو رضانا عن تصرفات ابن الخشاب البغدادي بأي شكل من الأشكال، فإن الرجل أوقف في نهاية حياته مكتبته العامرة بما لذ وطاب من المصنفات والمؤلفات على أهل العلم، أي حولها من مكتبة خاصة جدًا إلى مكتبة عامة، فلعل هذا السلوك الحضاري الراقي منه، والذي يهدف إلى خدمة أهل العلم وطلابه، لعل هذا السلوك يغفر له سيئاته مع الكتب وأصحابها.

مكتبة الموفق بن المطران

في الجزء الثاني من كتابه (عيون الأنباء) يحدثنا ابن أبي أصيبعة عن: الموفق بن مطران المتوفى سنة ٥٨٧ هـ، فنعرف أنه: موفق بن المطران الدمشقي، عرفه الناس بحدة ذهنه، وفصاحة لسانه، وكثرة اشتغاله بالعلم.[٨] ولابن المطران تصانيف كثيرة تدل على فضله ونبله في صناعة الطب، فقد خدم بطبه وعلمه الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، وحظى في أيامه بالمقام الرفيع، كما كان رفيع المنزلة عند صلاح الدين، عظيم الجاه. وكانت له همة عالية في تحصيل الكتب وجمعها، حتى أنه مات وفي خزانة كتبه من الكتب الطبية وغيرها ما يناهز عشرة آلاف مجلد، هذا بالإضافة إلى ما استنسخه.

وكان الموفق بن المطران صاحب عناية فائقة بالغة في استنساخ الكتب وتحريرها، وكان في خدمته ثلاثة نساخ يكتبون له أبدًا (بصفة دائمة)، يعطيهم المرتبات، ويقدم لهم الطعام والشراب والمأوى. وكتب ابن المطران بخط يده كتبًا عديدة، وقد اطلع عليها ابن أبي أصيبعة أو اطلع على عدد منها، وقال أنها كانت في نهاية حسن الخط، والحجة، والإعراب. وعرف عن ابن المطران كثرة المطالعة للكتب، فهو لا يفتر من ذلك في أكثر أوقاته، بل أن كل أوقات فراغه من العمل يقضيها في القراءة والاطلاع.

كما أن معظم الكتب التي كانت في مكتبته صححها بنفسه، وأتقن تحريرها، وعليها خطه بذلك، كما أنه ككان يضيف عليها بعض التعليقات أو الحواشي المفيدة. وعرف عنه كرم النفس، ولطالما وهب لتلامذته الكتب المفيدة المهمة تشجيعًا لهم على العلم والمعرفة والتحصيل. كما كان عنده أولوف من المجلدات الصغيرة (كتيبات) فكان أبدًا لا يفارق في كمه مجلدًا يطالعه على باب دار السلطان أو أين توجه، ولعل هذا يذكرنا بالوزير العباسي الفتح بن خاقان الذي كان يضع هو الآخر في كمه كتيبًا لا يزال يطالعه في ممره وعوده للمتوضأ، فإذا وصل إلى مجلس الخليفة أعادا الكتيب إلى كمه حيث كان.

ابن المطران رجل عالم فاضل، احترم الكتاب فأجله التاريخ، ما أحرانا أن نقتدي بابن المطران وبمثله !! فالأمم التي تحترم العلم والكتب، أمم يحترمها التاريخ، ويسجل دورها الثقافي والعلمي بأحرف من نور.

ولنقارن بين الطبيب العالم الموفق بن المطران المتوفى سنة ٥٨٧ هـ، وعبد الله ابن أحمد الخشاب البغدادي المتوفى سنة ٥٦٧ هـ، نلاحظ أن ابن الخشاب الذي سبق وأن تكلمنا عن مكتبته الخاصة مصاب بما يسمى في علم النفس الحديث بمرض (الببليوماتيا) أي الهوس بجمع الكتب، ومن الممكن القول بأنه مصابًا أيضًا بما يسمى مرض (الببليوكليتيا) أي مرض سرقة الكتب، وتلك محاولة للاجتهاد من جانبنا، والله أعلم بالعباد. أما الموفق بن المطران فقد كان الرجل يفهم معنى الكتاب، ومعنى الكتب، وكيفية احترامها، وآداب التعامل معها.

مكتبة القفطي

ندخل الآن إلى مكتبة جمال الدين القفطي الخاصة، والقفطي هو الوزير القاضي جمال الدين أبو الحسن، المولود في صعيد مصر، في مدينة قفط حيث نسب إليها، والمقيم بحلب السورية، والذي أجاد علوم اللغة العربية وبخاصة اللغة والنحو، كما كان بارعًا في علوم القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وعلوم الأصول، والمنطق، والفلك، والهندسة، والتاريخ. كانت وفاته سنة ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨م، وهو من علماء القرن السابع الهجري، وصاحب كتاب (إخبار العلماء بأخبار الحكماء)، والذي طبع لأول مرة في مدينة (ليبسيك) سنة ١٣٢٠ هـ.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

جمع جمال الدين القفطي من الكتب ما لا يوصف، وجاء بها له من الآفاق طمعًا في كرمه وسخائه، وكان لا يحب من دنياه سوى الكتب، فأوقف عليها نفسه، ورفض أن يتزوج حتى لا يشغله الأهل والأولاد عنها. والقفطي لم يتزوج مثله في ذلك مثل: الزمخشري، والطبري، وأبو حيان التوحيدي، وأبو العلاء المعري، وعباس محمود العقاد... وغيرهم .. وقد علل القفطي عدم زواجه لكي لا يحول ذلك بينه وبين التصنيف والقراءة والعلم، وإن كان ذلك يخالف سنة الحياة وطبيعتها وفي نفس الوقت تعاليم الإسلام التي كان يعيها القفطي وغيره، والله تعالى أعلم وأدرى بالأحوال والسرائر.

على كل حال؛ فقد أوصى جمال الدين القفطي في نهاية حياته بمكتبته كاملة للملك الناصر صاحب حلب السورية، فمن وجهة نظره الخاصة أنه الوحيد الذي يقدر قيمة العلم والكتب.. !! ويقال أن مكتبة القفطي كانت تساوي في ذلك الوقت أكثر من خمسين ألف دينار !! وللقفطي حكايات ونوادر عديدة تؤكد لنا عشقه الشديد وحبه الكبير للكتب التي جعلها خير رفيق، وفضلها على الزوجة والأولاد.

قول على قول:

إن إهداء العالم اللغوي جمال الدين القفطي مكتبته كاملة لحاكم حلب السورية، أو أنه أوقفها عليه، يذكرنا بقصة وردت عن عبد القادر البغدادي زعيم اللغويين في القرن العاشر الهجري، وصاحب خزانة الأدب، هذه القصة موجزها: إن الشهاب الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ، وأستاذ عبد القادر البغدادي أوصى بامتلاك تلميذه عبد القادر لمكتبته بعد وفاته.[٩] وكان للشهاب الخفاجي خزانة كتب حافلة بأعظم ما ادخره علماء القرون المتأخرة لما احتوت عليه من نفائس دواوين العرب، ومجاميع الشعر العربي الأصيل، وتعليقات أئمة اللغة العربية عليها، فلما انتقل الشهاب الخفاجي إلى رحاب ربه راضيًا مرضيًا، تملك البغدادي هذه المكتبة العامرة، وضم عليها على مر الأيام كتبًا أخرى عظيمة، وإذا اطلع القارئ على خزانة الأدب للبغدادي سيرى من أسماء الأمؤلفات التي وقف البغدادي عليها ما يقضي بالعجب العجاب!!.

في زمن الحب الحقيقي للعلم والمعرفة، في زمن نقي تقي لا يعرف المادية الزائلة الزائفة، لا يعرف الأحقاد والضغائن، لا يعرف تردي القيم الإنسانية النبيلة، في زمن عرف حقًا وصدقًا معنى الأستاذية ومعنى طلب العلم، كان الأستاذ إذا توسم في تلمسيذه الخير المرتجى، والموهبة والكفاءة التي قد تأتي ثمارها فتنفع الناس، كان الأستاذ لا يتردد في أن يهدي تلميذه ثروته كلها، وثروة العالم الحقيقية ليست في الأموال التي يودعها المصارف، إنما في مكتبته التي هي رأسماله الحقيقي، التي يستفيد منها في مشروعاته العلمية، لأنها خير زاد حقيقي، وهذا ما فعله الشيخ الشهاب الخفاجي مع تلميذه النجيب عبد القادر البغدادي.

وفي زماننا هذا نسمع ونقرأ عن أمور يندى له جبين المرء، أمور لا تمت بأي صلة إلى قيم وأخلاقيات ومبادئ العلم والمعرفة، فنسمع عن ابن العالم (فلان)، وشقيق العلامة (علان)، وابنة المفكر (س)، وزوجة الباحث أو الأديب (ص)، وقد باعوا مكتبته لثري من المكان الفلاني، أو لغني من المكان العلاني، أو لتاجر للكتب من أجل مبالغ زائلة فانية من المال. وقد يكون بعضهم صاحب عقل متفتح وقناعة، فيهدي كتبهم للدولة، وهذا شيء جميل طيب محمود، بشرط أن يضمن استفادة الناس بها، واستفادة أهل العلم ومحبي الفكر والثقافة منها استفادة حقيقية، أما أن تسلم للدولة فتسرق وتنهب وتبدد وتباع كما رأينا وشاهدنا بعيوننا في بعض الدول العربية، فذلك أمر مشين مرفوض، لا تجب أي حجج حتى لو قيل أن الفقر وسوء الأحوال الاقتصادية هو السبب !!.

مكتبة ابن فاتك

ابن فاتك توفي في نهاية القرن الخامس الهجري، وهو الأمير أبو الوفا المبشر بن فاتك، من أعيان أمراء مصر، وأفاضل علمائها، أجاد في علوم الهيئة، والعلوم الرياضية والفلسفية، كما أنه مارس واشتغل بالطب، ولازم الطبيب الشهير علي بن رضوان، وعرف عن المبشر حبه الشديد للكتب، وغزارة كتاباته وتصانيفه.[١٠] ويحكي لنا ابن أبي أصيبعة أنه وجد في مكتبة المبشر بن فاتك العديد من تصانيف المتقدمين بخط يده، وكان المبشر قد اقتنى كتبًا كثيرة جدًا على مر الأيام، وبعضها قد تغير لونه، أو لون أوراقه، بسبب غرق أصابه (أصاب الكتب).

الغيرة من الكتب:

يحدثنا الشيخ سديد الدين المنطقي عن سبب هذا الغرق (الكتبي)، أن الأمير المبشر بن فاتك كان محبًا عاشقًا للقراءة والاطلاع والعلم، وكان محبًا لتحصيل العلوم والمعارف، لا متعة له إلا في قراءة الكتب، وفي خزانة كتبه أي في مكتبته العظيمة كان يقضي جل وقته، يجلس فيها ولا يفارقها أبدًا، وكانت له زوجة فاضلة، ولكن داخلها غيرة كبيرة من الكتب ومن المكتبة، من المطالعة والكتابة التي لا ينفك عنها زوجها، فلما توفى الأمير المبشر نهضت هي وجواريها إلى خزائن كتبه، وفي قلبها من الكتب لوعة لا حدود لها، لأنه كان يشتغل بها أغلب وقته منصرفًا عنها، فجعلت تندبه، وفي أثناء ذلك ترمي الكتب في بركة ماء كبيرة وسط الدار هي وجواريها، ثم أخرجت الكتب بعد ذلك من الماء، وقد غرق أكثرها، فهذا هو سبب تغير لون ورقها.

إذن شيخنا ابن أبي أصيبعة رأى هذه الكتب وعرفها بعد وفاة الأمير المبشر، أي بعد ما فعلته الزوجة بها. ويبدو أن الزوجة أصيبت بحالة هستيرية بعد وفاة الزوج نجم عنها ما فعلته بالكتب، وفاتها أن الفاضل حقًا من أحب الكتب واحترمها، من احترم وبجل ما يحبه الزوج، والزوج كان يحب الكتب في حياته، فلما لا تحترمها في مماته ؟ ! ويبدو أنها كانت تغير جدًا من الكتب التي تأخذ زوجها منها في حياته، ولكنها باستطاعتها أن تغرق كتب الزوج وهو حي يرزق، فظلت تكبت هذه الرغبة المدمرة بداخلها إلى أن نفذتها على الفور بمجرد وفاة الزوج.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

إن تاريخ الحضارة العربية الإسلامية يحفل بأسماء سيدات فضليات احترمن العلم والمعرفة، وكتب التاريخ أسمائهن بحروف من نور جزاءً وفاقًا لما قدمن من فكر جاد نفع الإنسانية قاطبة، ولكن ماذا نقول فلكل قاعدة استثناء !! .

مكتبة إفرائيم الزفان

إفرائيم الزفان، طبيب مصري مشهور، كانت وفاته سنة ٥٠٠ هـ، خدم الخلفاء، ونال منهم أعظم العطايا، قرأ علوم الطب على الطبيب النابغة أبي الحسن علي بن رضوان، فكان من أفضل طلابه، وكانت له الهمة العليا في تحصيل الكتب، وفي استنساخها حتى كانت لديه العديد من خزائن الكتب التي تضم كتب الطب وغيرها من كتب المعارف والعلوم المختلفة.[١١] وينقل لنا ابن أبي أصيبعة في كتابه (عيون الأنباء) عن والده أن رجل من العراق كان قد أتى إلى الديار المصرية كي يشتري كتبًا ويتوجه بها إلى العراق، وأنه اجتمع مع الطبيب المصري إفرائيم الزفان، واتفق الحال فيما بينهما أن باعه إفرائيم من الكتب التي عنده عشرة آلاف مجلد.

ويقال إن ذلك كان على أيام الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمال الذي يعرف بأمير الجيوش، سمع الأفضل بهذه القصة فقرر ضرورة أن تبقى تلك الكتب في الديار المصرية، ولا يمكن نقلها إلى موضع آخر، فبعث إلى إفرائيم من عنده بجملة المال الذي كان قد اتفق عليه بين إفرائيم الزفان والتاجر العراقي، ونقل الكتب إلى خزانة الأفضل، وكتبت عليها ألقابه.

ويؤكد لنا ابن أبي أصيبعة أنه رأى كتبًا كثيرة من هذه المجموعة، وقد كتب عليها اسم إفرائيم، وبجوارها ألقاب الوزير الأفضل الفاطمي. وخلف إفرائيم من الكتب ما يزيد عن عشرين ألف مجلدًا، أي أنه ترك مكتبة ضخمة، بذل الجهد الكبير في جمع كتبها، وقد عرف عن الرجل حب الكتب واحترامها.

مجرد تساؤلات:

في عهد الأفضل بن بدر الجمالي تم إغلاق دار الحكمة التي أسسها الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي، لتكون بمثابة مؤسسة أو أكاديمية علمية على أعلى مستوى، وليس مجرد مكتبة عامة يستفيد منها الناس، محتزيًا بذلك خطوات الخليفة العباسي المأمون الذي أنشأ وطور بيت الحكمة ليكون بمثابة منارة علمية وفكرية جعلته بحق الفتى الذهبي للحضارة الإسلامية. لم نقرأ عن أي إنجاز علمي أو أي اهتمام بالكتب والمكتبات من جانب الأفضل، فكيف يسعى بكل ماله وجهده لوقف الصفقة التي تمت بين إفرائيم الطبيب المصري والتاجر العراقي ؟!

ثم هل من اليسير جدًا على رجل أحب العلم والمعرفة مثل إفرائيم الزفان، الذي وصف بأنه صاحب همة عالية في تحصيل الكتب، هل من السهل عليه في أن يفرط في عشرة آلاف مجلد كاملة، وإذا عرفنا أن مكتبته كانت تضم حوالي عشرين ألف مجلد، معنى ذلك باع نصف مكتبته بالتمام والكمال !! فهل هذا من العقل والمنطق؟

لقد تولى الأفضل بن بدر الجمالي الوزارة سنة ٤٨٧ هـ، أي بعد وفاة والده بدر الجمالي، وتوفي مغتالاً سنة ٥١٥ هـ، بينما توفى إفرائيم الزفان ٥٠٠ هـ، وعليه فإننا نشك في هذه القصة، إلا إذا كان إفرائيم أراد أن يتخلص من مكتبته لضائقة مالية شديدة مرت به مثلاً، أو لسوء الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية في تلك الفترة من تاريخ مصر، أو أنه قرر أن يغادر البلاد لضغط سياسي أو عقائدي معين تعرض له. كل ذلك من الجائز، ولكن من المؤكد لنا أنه من الصعب على عالم جليل مثل إفرائيم أن يفرط بهذه السهولة المطلقة في مكتبته القيمة !!

وقد يقول قائل إن الأفضل الجمالي هذه المجلدات من قبل الشهرة وحب الفخامة والعظمة والتباهي، لذا وضع ألقابه عليها، وهذا مؤكد دون شك إن كانت هذه الصفقة قد تمت بالفعل !!؟. ولماذا نستبعد أصلاً استيلاء الأفضل الجمالي على مكتبة إفرائيم بطريقة أو بأخرى، على كل حال فلنضع في الاعتبار إن أبي إصيبعة يحكي عن والده هذه القصة، وهو لم يشاهدها بنفسه، ومن هنا يكون احتمال الشك فيها قائمًا....

مكتبة العماد الأصفهاني

العماد الأصفهاني الذي نقصده هو صاحب كتاب (تاريخ آل سلجوق)، والذي نشر لأول مرة سنة ١٨٨٩م، وصاحب كتاب (الفتح القسي في الفتح القدسي)، والذي طبع في ليدن (لندبرج) سنة ١٨٨٨م، أي أنه غير ابن العماد عبد الحي بن أحمد بن محمد، المعروف بابن العماد، المؤرخ الكبير، وصاحب كتاب (شذرات الذهب في أخبار من ذهب)، والمتوفى في مكة المكرمة عام ١٠٨٩ هـ.

عماد الدين الأصفهاني كان مولده في أصفهان سنة ٥١٩ هـ/ ١١٢٥م، وينتمي إلى أسرة ولي كثير من أفرادها وظائف مهمة في الدولة السلجوقية، وفي حكومة الخلافة العباسية، درس الفقه والحديث على أساتذة المدرسة النظامية ببغداد، كما برع في نظم الشعر وصناعة الكتابة، وتقلب في بعض الوظائف في حكومة الخلافة العباسية، ثم انتقل إلى دمشق السورية بعد اضطراب الأمور في بغداد، فعمل مدرسًا في المدرسة النورية، فذاع صيته ودخل في خدمة نور الدين زنكي، ثم ابنه الصالح.

ولم يلبث أن دخل في خدمة صلاح الدين الأيوبي بإشارة من القاضي الفاضل سنة ٥٧٠ هـ/ ١١٧٥ م، فلم ينقطع عن مصاحبة الناصر صلاح الدين حتى إذا مات ٥٨٩ هـ/١١٩٣م، اختلفت أحوال الأديب والكاتب والمؤرخ عماد الدين الأصفهاني، فلزم بيته، وتفرغ للتأليف والتصنيف، حتى وفاه أجله بدمشق سنة ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠م. خص الكاتب العماد الأصفهاني صلاح الدين بكتابين من مجموع مؤلفاته التي يبلغ عددها ١١ كتابًا، وهما كتاب (البرق الشامي) وكتاب (الفتح القسي)، وأشهرهما كتاب (الفتح القسي)، الذي استهله بوصف الاستعدادات لمعركة حطين التي دارت سنة ١١٨٧م، وانتهى فيه إلى وفاة صلاح الدين، وتقسيم دولته سنة ١١٩٣م،

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

فتناول بذلك نفس الفترة التي تناولها المؤرخ أبو شامه في كتابه (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية).

هذه المقدمة أردنا أن نؤكد بها على أن عماد الدين الأصفهاني كان من الأدباء والمؤرخين المشهود لهم بالمقدرة والكفاءة، كما أنه كان من محبي الكتب وعشاقها، ومن الساعين بكل الجهد إلى اقتنائها والاستفادة منها، ها هو أبو شامه في كتابه (الروضتين) ينقل لنا عن العماد الأصفهاني فيقول: كان لبيع الكتب في القصر (مقر الحكم الأيوبي أيام عماد الدين الأصفهاني وأبي شامه، ومقر حكم الفاطميين سابقًا)، إثر سقوط الدولة الفاطمية، كل أسبوع يومان، وهي تباع بأرخص الأثمان، وقد كانت في القصر مرتبة البيوت، مقسمة الرفوف، مفهرسة، فأراد دلالو الكتب أن يشتروها بثمن بخس، فخدعوا بها الوزير بهاء الدين قراقوش متولي القصر والمشرف على عملية بيع الكتب، فأشاروا عليه بإخراج الكتب من الرفوف لتهويتها ونفضها مما يكون قد لحق بها من أتربة.

فاستجاب لهم، وتسبب عن ذلك أن اختلطت الكتب واضطربت، فأصبحت تجد كتب الطب مع كتب التفسير، كما توزعت أجزاء المؤلف الواحد فلا تكاد تعثر عليها جميعًا. وقد نتج عن هذا أن أصبحت الكتب تسام بالدون، وتباع بالهوان، والدلالون يجمعونها ويرتبوها في الخارج، وبالطبع يحملونها بعد ذلك لبيعها بأغلى الأسعار!!.[١٢] وعندما رأى عماد الدين الأصفهاني الأمر هكذا، حضر إلى مقر القصر، حيث بيع الكتب، واشترى كما اشتروا، فلما عرف السلطان (صلاح الدين الأيوبي) ما ابتاعه، وكان بمئين (أو بمائتين)، أنعم عليه بها، وأبرأ ذمته من ثمنها، ثم وهب له أيضًا من خزانة القصر ما اختار من كتبها.[١٣]

ويحكي عماد الدين الأصفهاني أيضًا: أنه دخل على صلاح الدين الأيوبي ذات يوم، وبين يديه مجلدات كثيرة انتقيت له من مكتبة القصر، وهو ينظر في بعضها، ويبسط يده لقبضها، وكان العماد طلب كتبًا عينتها لأخذها من مكتبة القصر، فقال صلاح الدين للعماد: وهل في هذه شيء منها ؟، فقال العماد: كلها !! فوهبها له كلها، وأخرجها العماد من عند السلطان بجمال.[١٤] وهكذا تكونت مكتبة عظيمة بالمجان للمؤرخ والأديب عماد الدين الأصفهاني، من هذه الهبات السخية جدًا، بالإضافة إلى ما كان عنده من كتب ووثائق خاصة به.

تأملات في الرواية الأصفهانية:

بقراءة كلام عماد الدين الأصفهاني الذي رواه المؤرخ أبو شامه، يتضح لنا عدة أمور نحب أن نقف أمامها:

١- موقف صلاح الدين الأيوبي من الكتب والمكتبات، موقف عجيب وغريب، حيث باعها بأرخص الأثمان وأبخسها، بل أنه يعطيها بالمجان، وبأكبر كمية ممكنة لمن يعرفه، وهذا ما فعله مع العماد الأصفهاني الذي خرج من حضرة صلاح الدين بكتب لا يقدر على حملها إلا حمال قوي خبير مدرب، أما كان من الأوفق أن يتركها كما هي أو يزيد عليها كي تكون زادًا ثقافيًا للقراء وأهل العلم، يطع عليها ما أراد ؟ وما المانع في أن يحولها إلى مكتبات عامة لصالح الناس وفائدتهم؟! وهذا كان معروفًا ومتبعًا على أيامه بل قبل أيامه، ولو فعل ذلك لأضيفت مكرمة إلى مكارمه، وعرف بحق أنه محب للفكر والعلم مهما اختلف مع توجهه.

٢- لقد دخل العماد الأصفهاني على صلاح الدين وبين يديه مجلدات كثيرة انتقيت له من مكتبة القصر، أي أنه كان يقرأ فيه، وكان الأصفهاني قد طلب كتبًا معينة له، ويسأله صلاح الدين: هل في هذه الكتب شيء منها؟ إذن قد يفهم القارئ من هذا الكلام أن صلاح الدين لا يعرف الكتب التي أمامه بالتحديد، ثم بسهولة شديدة وغريبة يعطيها كلها للأصفهاني دون أن يقرأ منها أي شيء !!.

٣- التاجر هو التاجر في أي زمان وأي مكان، الذي يهمه في بيعه وشرائه أن يكسب فقط لا غير، ويبدو أن تجار الكتب في مطلع الدولة الأيوبية كانوا لا يتسمون بالصدق والأمانة، فرغم أن الكتب كانت تباع في مقر الحكم الأيوبي بثمن زهيد، فهم يدبرون الحيلة ليخدعوا الوزير بهاء الدين قراقوش طالبين منه أن يأمر بخروج الكتب للتهوية ونفض التراب عنها، والذي نعرفه كباحثين ودارسين في المكتبات العربية والإسلامية، أن المكتبات كانت تلتزم في اختيار أماكنها بضرورة التهوية حرصًا على الكتب، في نفس الوقت الذي كان فيه عدد كبير من العمال أو الفراشين المعينين في كل مكتبة وظيفتهم تنظيف الكتب من أي تراب قد يعلق بها. المهم أن التجار أصحاب الذمم الخربة خدعوا قراقوش ذلك المهندس الذكي المتمكن من فن الإدارة والذي عرف عنه الحسم والحزم، وبالذات عندما تولى الإشراف على قلعة صلاح الدين الشهيرة، كانت النتيجة اختلاط الكتب واضطرابها، وتوزعها، فنجم عن ذلك أن أصبحت الكتب تباع بأرخص الأسعار، في الوقت الذي كان التجار يجمعونها ويرتبونها خارج القصر لبيعها بأغلى الأسعار، وهم بالطبع في غاية السعادة بهذا الكسب المادي الذي لم يكن على بالهم أو خاطرهم !.

٤- هكذا محب العلم في كل زمان وكل مكان، فعماد الدين الأصفهاني بمجرد أن سمع ببيع الكتب سارع إلى القصر كي ينهل من هذه الثروة غير المنتظرة بالثمن الذي يشتري به التجار، ولكن طاقة القدر فتحت له، وحصل على مكتبة كاملة بالمجان!!

٥- نخلص من كلام الأصفهاني أن الكتب في المكتبات الفاطمية كانت مرتبة تمام الترتيب، مقسمة على الرفوف، منسقة، مبوبة، مفهرسة، وهذا أكبر دليل على اهتمام الفاطميين بالكتب والمكتبات، ورعايتهم لها، ومعرفتهم بفنون الفهرسة، والتصنيف، والتقسيم، والترتيب، وكيفية تنسيق الكتب على أكمل وجه.

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

٦- إذا كان الحاكم بأمر الله الفاطمي شخصية غامضة وغريبة، لم تتمكن الدراسات والأبحاث حتى الآن من إنصافها وفق منهج علمي سليم، فإن دوره في خدمة العلم والكتب والمكتبات كان معروفًا وقد أشاد به من كتب عن عصره إشادة كبيرة.

٧- في الدولة الأيوبية شخصية يجب أن نعطيها حقها ألا وهي الوزير بهاء الدين قراقوش الذي كتب عنه ابن مماتي كتابه الشهير (الفاشوش في حكم قراقوش)، ونعرف من التاريخ أن قراقوش كان بارعًا في علم الهندسة والإدارة، وكان هو الوزير المسئول عن بناء قلعة صلاح الدين الأيوبي، يضرب بيدًا من حديد على يد هؤلاء الذين يهملون أو يستهترون أو ينفلتون أثناء أداء العمل، أو يغشون في مواد البناء، ويقال أنه كان عبقريًا في التصميم والبناء، ويبدو أن بعض المقاولين أصحاب الضمائر الميتة أو غير الملتزمين الذين كان يوكل لهم العمل في بناء القلعة هم أول من أطلق الشائعات التي تتهم قراقوش بالظلم والاستبداد والقسوة والتعسف، وحبكوا حوله الأساطير والشائعات، بل أنه أضحى في التراث الشعبي ملكًا أو حاكمًا ظالمًا متجبرًا، والحقيقة غير ذلك على الإطلاق، فقد خدم الرجل الدولة الأيوبية بكل التفاني والإخلاص. وبهاء الدين قراقوش لا نرى له أدنى علاقة بمسألة بيع وشراء الكتب ن فليس من المستبعد أن تنطلي عليه خدعة تجار الكتب عندما طلبوا منه أن يخرج الكتب كلها من الرفوف، وهو في بيع الكتب ينفذ رغبة صلاح الدين وليست رغبته هو.

وختامًا نقول: إن العماد الأصفهاني الذي خدم من قبل نور الدين زنكي، ثم رافق الناصر صلاح الدين الأيوبي في جميع حملاته، وكتب مؤلفًا مهمًا أرخ فيه لفتح بيت المقدس الشريف أسماه (الفتح القسي)، يعد من أوثق ما يصور هذا الفتح الكبير، والعماد الأصفهاني يعد من الرجال الذين أخلصوا في خدمة صلاح الدين مثله في ذلك مثل قراقوش (معناها الغراب الأسود)، والأديب الكاتب القاضي الفاضل، والشاعر الرحالة السياسي أسامة بن منقذ.

خاتمة

لقد انتشرت المكتبات العامة في العالم الإسلامي في عصور حضارته الزاهرة كمؤسسات خيرية وتعليمية، إلا أن المكتبات الخاصة انتشرت هي الأخرى في شرق العالم الإسلامي وغربه، فقلّ أن تجد عالمًا إلا وله مكتبة خاصة تحوي آلاف الكتب، لذا ألقينا الضوء في الصفحات السابقة على عدد من المكتبات الخاصة التي تحدث التاريخ عن أخبارها بإعجاب.

الهوامش:

(١) ابن طباطبا العلوي، **الفخري**، القاهرة، ١٩٢٣، ص ٣.
(٢) ابن النديم، **الفهرست**، القاهرة، ١٣٤٨ هـ، ص ٢٠٥، بتصرف من عندنا.
(٣) ابن النديم، **الفهرست**، القاهرة، ١٣٤٨ هـ، ص ١٦٩، بتصرف من عندنا.
(٤) ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء**، نشرة أوجست ميللر، ١٨٨٤ ، ١ / ١٨٦، بتصرف من جانبنا.
(٥) القفطي، **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، ليبسك، هولندا، ١٣٢٠ هـ، ص ١٧٤.
(٦) ابن النديم، **الفهرست**، القاهرة، ١٣٤٨ هـ، ص ٤١٠.
(٧) ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، نشرة مرجليوث، لندن، بدون تاريخ، ٤ / ٢٨٦ . ٢٨٧، وكذلك ١٢ / ٤٩
(٨) ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء**، نشرة، أوجست ميللر، ١٨٨٤ ، ٢ / ١٧٥ . ١٧٩، بتصرف من عندنا.
(٩) أسماء أبو بكر محمد، **عبد القادر البغدادي: زعيم اللغويين في القرن العاشر الهجري**، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٥٥، وما بعدها بتصرف.
(١٠) ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء**، نشرة أوجست موللر، ١٨٨٤، ٢ / ٩٨ . ٩٩.
(١١) ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء**، نشرة أوجست موللر، ١٨٨٤ ، ٢ / ١٠٥.
(١٢) أبو شامه، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، القاهرة، ١٢٨٧ هـ . ١٢٨٨ هـ، ١ / ٢٦٨، بتصرف من عندنا.
(١٣) أبو شامه، المرجع نفسه، الموضع نفسه، بتصرف من عندنا.
(١٤) أبو شامه، المرجع نفسه، الموضع نفسه، بتصرف من عندنا.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449